من القومية إلى الوطنية

احتل الاستعمار بلاد المسلمين سنوات طويلة، وقد بذل في هذه السنوات من الجهود الجبارة لحرب الإسلام والمسلمين، ما يعجز القلم عن تسطيره في مثل هذه العجالة، ولم يخرج منها إلا وقد اطمأن إلى أنه قد خلف جنودًا يحملون رسالته، ورجالاً يذبون عن أهدافه، يحيون ويموتون في سبيله، وإن كانوا من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كثير منهم يركعون ويسجدون معنا ويصلون في مساجدنا.

ولمواجهة الخلافة الإسلامية - التي كانت قائمة في آخر عهد الدولة العثمانية - تبنى الاستعمار لغة القوميات التي أتت على أمتنا بالشرور والويلات.

وبعد أن قضى على الخلافة العثمانية، جاءت اتفاقية (سايكس - بيكو) التي قطعت فيها الأمة العربية إلى دويلات، وشتت شمل المسلمين من خلال تلك المؤامرات.

وبعد أن ارتفع صوت القومية طويلاً وأدى جزءاً من الأهداف المرسومة له، ظهرت دعوة أخرى - لا تقل خطرًا عن مؤامرة القوميين - تلك هي الدعوة إلى الوطنية، واتخاذ الوطن إلهًا يعبد من دون الله، وارتفع صوت الوطنيين في كثير من الدول الإسلامية يدعون إلى مبادئ تخالف دعوة الإسلام، وتدعو إلى الانصهار في بوتقة الوطن، واعتباره رابطًا قوميًا يعلو فوق كل الروابط.

ولم يدر أولئك - ولربما علموا - ما يحمل هذا الفكر الخبيث من سموم، وما سيجره على الأمة من مصائب ونكبات.

إننا في الوقت الذي تتداعى فيه أمم الكفر على أمتنا، وتجتمع علينا في إطار عقيدة واحدة، نجد بيننا من يرفع شعارًا يمزقنا، ومبادىء تفرقنا.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث في قوم تحكمهم العصبيات، وتسودهم الوثنيات، فكان السلاح الذي رفعه صلى الله عليه وسلم في وجه أولئك هو

الإسلام، الذي جمعهم بعد تفرق، وذابت فيه كل الفوارق والألوان والجنسيات والطبقات.

وفي ظل الإسلام عقدت أعظم مؤاخاة في التاريخ، جمعت العربي مع الرومي، والفارسي مع الأوسي، والحبشي مع الخزرجي، ولم يكن هناك أي اعتبار لميزان الجنس واللون والوطن.

وإن أخطر ما في مثل هذه الدعوة أن بعض المسلمين يتحمس لها ويدافع عنها بحسن نية وسلامة مقصد، بل وتجدهم يرددون ما يزعمون أنه حديث نبوي (حب الوطن من الإيمان) وهو حديث موضوع[1] لا يجوز الاحتجاج به ولا الركون إليه.

وأشير هنا إلى أن حب الوطن أمر غريزي جبلي لا يستطيع الإنسان أن ينكره أو ينفيه، ولكن الخطر الداهم أن كثيرًا من دعاة الوطنية اتخذوه صنماً يعبد من دون الله، وتخلوا على مبادئهم الإسلامية باسم الوطنية {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: 165].

ولنقرأ مقاطع من مقالة كتبها أحد أولئك حيث قال: (ليس أغلى على الإنسان أو غيره من الوطن، من الأرض، من التراب الذي يخصه، وعلاقة الإنسان وغير الإنسان بأرضه علاقة تختلف عن كل علاقة، فهي أصلب، وهي أشد).. ثم يمضي الكاتب في غلوه، فيقول: (ليس ثمة ما هو أرقى من العلاقة بين المخلوق وتربته وأرضه ووطنه).

ولم يكتف بذلك، بل جاءت القاصمة - التي لا تقصم الظهر، ولكن تقصم الدين - : (إن كل شيء يذهب ويتلاشى، إلا حب الأرض، حب الوطن، هو الذي يستمر مشتعلاً في الذات دائمًا أبدًا، كالوشم الذي لا يتغير).

---

[1] هذا حديث موضوع، وانظر تخريجه في:
1) موضوعات الصنعاني، ص 47، حديث رقم 81، بتحقيق نجم عبد الرحمن خلف، وفي الهامش كلام قيم.
2) المقاصد الحسنة، ص 173، رقم 386 وقال لم أقف عليه.
3) كشف الخفاء، للعجلوني، ص 345، 346؟ رقم 1102، وفيه كلام طيب.
4) الموضوعات الكبرى لعلي القاري، ص 181، 182؟ بتحقيق الشيخ محمد الصباغ.

هـذه النتيجـة المتوقعـة مـن أدعيـاء الوطنيـة، وهـذا الكاتب لا يعبر عـن نفسـه، ولكنـه خريـج مدرسـة قائمـة، علمته: كيف يحب، ومن يحب، ومتى يحب.

نسي هذا الكاتب - أو تناسـى - أن الحـب فـي اللـه، والبغض في الله مـن أوثـق عـرى الإيمـان، وتجاهـل قـول الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم: (لا يـؤمن أحـدكم حـتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) [2].

ونتيجة لهذا الغلو والإفراط أصبحوا مـن أجـل الأرض يحيون، وفي سـبيل الـتراب يبغضـون، وفـي ذات الـوطن يوالون ويعادون.

نعم.. كل إنسان يحب وطنه، ولكـن المسـلم يجعـل هذا الحب في إطاره الصحيح، فهـو حـب طـبيعي فطـري ولكنه لا يقدمه - بحال من الأحوال - على حب الله وحـب رسوله، ولا يساويه بحب دينه، بل ولا يرقـى حـب الـوطن إلى حب الوالدين.

إذا هو حب يحكم بحب أسمى منه والعلاقة بـالوطن تخضع لعلاقة أقوى منها.

أما أن يصل حب الوطن إلى أن يقول شاعرهم:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي

فهـذا حـب لا يقـره الإسـلام ولا يرضـاه بـل يمقتـه ويأباه.

إن حقيقـة الـدعوة للوطنيـة تـبرز عنـدما تتعـارض مصـلحة مـن مصـالح الـوطن - الموهومـة - مـع مبـادئ الإسلام وقيمه الحقيقية، نجـد إن دعـاة الوطنيـة يقـدمون تلك المصلحة الظنية على ما يقره الإسلام ويدعو إليه.

ولأولئـك نقـول: إن اللـه سـبحانه وتعـالى قـد ذم المنافقين الذين فضلوا البقاء في الأوطـان عِلـى الخـروج منها للجهاد في سبيل الله، فقال: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً} [النساء: 66].

---

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان.

وأخبر سبحانه عن النهاية المخزية للذين رفضوا الهجرة وارتدوا عن دينهم إيثارًا لحبهم لأوطانهم، وتفضيلها على حب الله ورسوله، {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً} [النساء: 97].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب مكة، ولكنه قدم الهجرة فرارًا بدينه على حب وطنه، وكذلك فعل صحابته الكرام، وهكذا يكون حب الوطن والولاء له ليس حبًا مطلقًا ولا ولاء محررًا من كل قيد، كما يريد أولئك الأدعياء.

وأقول بصدق:

إن الذي يزعم حب الوطن حبًا مجردًا من مبادئ الإسلام وضوابطه إنه كاذب في زعمه خائن لوطنه وأمته، هو أول من ينسحب في معركة الذب عنه والدفاع عن حرماته، وما قصة المنافقين في "أحد" إلا برهان قوي للرد على هؤلاء.

وفي "الأحزاب" خير دليل على حقيقة مواقفهم: {وإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ويَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ومَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً * ولَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا ومَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً * ولَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً} [الأحزاب: 13 - 15].

وأحداث أفغانستان شاهد حي على مواقف المجاهدين الصادقين، الذين أبلوا بلاء حسنًا في الذب عن ديارهم وبلادهم، ومواقف الذين يتعجعجون بالوطنية، فلما جد الجد ونادى منادي الجهاد: {ولَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً} [الإسراء: 46].

فبان الصادق من الكاذب[3] والوفي من الخائن، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

بقلم؛ ناصر البريدي

منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth

موقعنا على الشبكة

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth

[3] لان الـ
في دفا
للدين.

و داخل
ساحة